صفات الربَّانِيِّين

أحمد الجوهري عبد الجواد

منهاج المربِّي

المقدِّمـــة

الربَّاني المنتسب إلى الربِّ جل جلاله بالقول والفعل والحال، وهذا يشمل: العبد المتألِّه المتعبّد القريب من الله تعالى، والعالم الراسخ في العلم الذي يعمل بعلمه، والمعلِّم القدوة الذي يغذو الناس بصغار العلم قبل كباره.

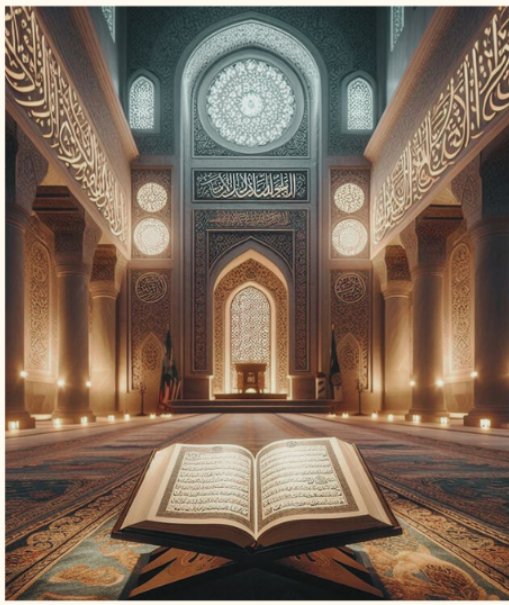

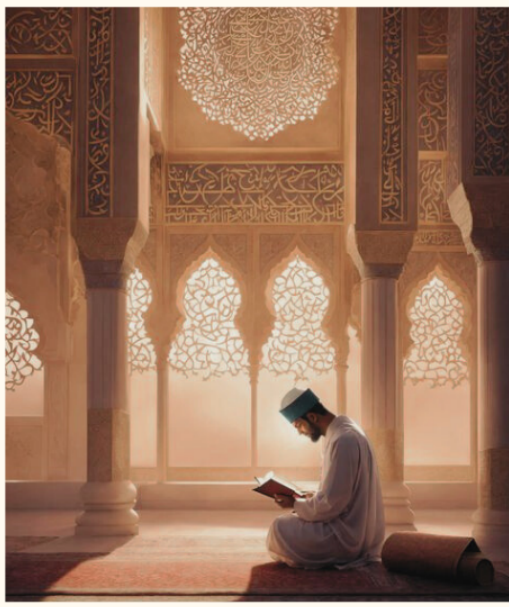

وهكذا كل من تحرر من أسر النفس والهوى وخلّص قلبه من أمراضه وانتسب إلى الرب تبارك وتعالى.. فهو رباني: عابد أو عالم أو معلّم.

الربانية صفة خاصة لبعض المؤمنين يتصفون بها عندما يتحققون بشروطها، فهناك بعد دخول الإيمان في القلب مرحلة أخرى من المجاهدة من أجل أن يكون القلب كله لله تبارك وتعالى: يتخلص من جواذب الأرض، وينطلق نحو رحلة السماء.

... وهي ولادة جديدة للروح بعد ولادة البدن ...

الربانية فريضة وضرورة، فمن كان يطلب سكينة النفس وطمأنينة القلب وراحة البال ويبتغي الرضا وينشد السعادة فإنه لن يجدها إلا في الربانية، فإن هذه المعاني تفيض على الإنسان من نفسه وقلبه، إن داخله هو منبع السعادة.

ومن أراد أن يكون في معية الله تعالى وحمايته وحفظه وكلاءته وكفايته ونصرته ورعايته في مصالحه جميعها وأموره كلها فإنه لن يجد ذلك إلا في الربانية فإن الله عز وجل تكفل لمن انتسب إليه بذلك.

ومن أراد أن يؤمن مستقبله ومستقبل أسرته وعقبه وعقب عقبه ويحفظ أمن مجتمعه ووطنه وأمته فإنه لن يجد ذلك إلا في الربانية فإن الله سبحانه وتعالى قد وعد بذلك.

ومن أراد أن يأنس بالكون ويأنس الكون به وتهدأ روحه وينسجم مع فطرته وينعم ولا يبأس ويلم شعث قلبه ويزيل وحشة نفسه ويذهب حزن صدره ويسكن قلق روحه ويسد فاقة نفسه فإنه لن يجد ذلك إلا في الربانية فإن الله تعالى قد ضمن له ذلك.

ومن أراد العز والنصر والغلبة والتمكين والرفعة ووراثة الأرض وتطبيق دين الله تعالى فيها فلن يجد ذلك إلا في الربانية فإن الله تعالى اشترط ذلك.

وبالجملة فمن أراد الفوز بالدنيا والآخرة فعليه بالربانية.

فهرس المحتويات

حلية الربانيين

(دستور الربانيين) أعنى في هذه الكلمات بالحديث عن الربانية: (معناها، الحاجة إليها، طريق تحصيلها، صفات الربانيين، أحوالهم، معوقاتهم.. إلخ)، وقد تحدثت عن بعض صفاتهم - وهي 43 صفة، هي التالية:

1. التوبة	2. المجاهدة
3. الخلوة والعزلة	4. التقوى
5. الورع	6. الزهد
7. الصمت	8. الخوف
9. الرجاء	10. الحزن
11. الجوع وترك الشهوة	12. الخشوع والتواضع
13. مخالفة النفس وذكر عيوبها	14. القناعة
15. التوكل	16. الشكر
17. اليقين	18. الصبر
19. المراقبة	20. الرضا
21. العبودية	22. الإرادة
23. الاستقامة	24. الإخلاص
25. الصدق	26. الحياء
27. الحرية	28. الذكر
29. الفتوة	30. الفراسة
31. الخُلُق	32. الجود والسخاء
33. الغيرة	34. الولاية
35. الدعاء	36. الفقر
37. الأدب	38. الصحبة
39. المحبة	40. التعظيم
41. الشوق	42. الذل
43. التفكر	44.

1. التوبة

التوبة مقام رئيس في طريق السالك، فهو عنوان الفلاح، وحامل بشرى النقاء ومنحة المحبة، وهو بداية الطريق والرفيق على امتداده فإن رجوع المسلم عما هو مذموم إلى ما هو محمود واجب في كل نفس من أنفاسه.

وللتوبة شروط: يندم على ما كان في الماضي، وينزع عن الذنب في الحاضر، ويعزم على عدم العود في المستقبل، وهكذا تشمل شروط التوبة الأزمنة الثلاثة. ومن شروط التوبة: أداء الحقوق إلى أصحابها إن كان الذنب في حق الخلق. من أصغى إلى واعظ قلبه وتفكر في قبيح فعله.. أيقظه من رقاده، ونبهه على سوء حاله، ودعاه إلى التوبة، وقوَّى عزمه على تصحيح معاملة مولاه.

أول طريق التوبة: مفارقة رفقاء السوء، وملازمة طريق الخير والصبر عليه حتى تنحل عقدة الإصرار ويضعف طلب الذنب من القلب. من هيَّجه الشوق إلى التوبة ومضى في الطريق حتى قطع شوطًا لا ينبغي أن يرده عن الاستمرار فيه شيء وإن نقض التوبة مرة أو مرات، فإن الشيطان لن يدعه ولن تدعه النفس وهو أيضًا لا ينبغي له أن يقطع الرجاء أو يترك العزم.
الذنب إذا دخل القلب لم يرض بالزيارة ثم المغادرة، بل يهيئ له مكانًا ليقيم فيه، ولهذا ينبغي أن يصر العبد على طرده منه وإن تشبث، وأن يحاول مرات وإن أخفق، وأن ينوع في أساليبه ووسائله حتى ينجح.
لا تخجل من السقوط في الذنب بعد التوبة ويحملك ذلك على ألا تتوب فإنه قد خلقك مفتنًا نسيًّا ولم يخلقك معصومًا، وادخر طاقتك للتوبة مرة أخرى والتشبث بها بدرجة أقوى هذه المرة، فإن الشيطان يقول: إنه إذا عاد كان أقوى مما قبله فيدعك ولا يزعجك.
من عوامل صدق التوبة:
أن يستبدل العبد بالمخالطة الضارة العزلة النافعة، وبالرفقة السيئة رفقة صالحة، وبالتهاون والتفريط الحماس للطاعة والحذر من المعصية، وبإهمال النفس محاسبتها، وبعدم المبالاة التأسف والندم والمراقبة.

... طوبى لمن لفحته حرارة الذنب فهرول إلى ظل التوبة ...

أعلم أن من شروط التوبة: ردَّ الحقوق إلى أهلها، فإذا كنت لا أقدر على ذلك في الوقت الحالي.. ماذا أفعل؟
التوبة من الذنوب واجبة، وشروطها: الندم على ما مضى، وترك الذنب في الحال، والعزم على عدم الرجوع إليه في المستقبل، وإذا كان في حق المخلوقين وجب على التائب نعم رد الحقوق إلى أصحابها. فإذا أوصل إليهم حقوقهم أو سمحت نفوسهم بإحلاله والبراءة عنها فالحمد لله ويكون قد وفى وكملت توبته. وإذا لم يقدر التائب على رد الحقوق إلى أهلها لعدم استطاعته ولم يسامحوه فيها:
- يعزم بقلبه على أن يخرج من حقوقهم عند الإمكان.
- ويرجع إلى الله تعالى بصدق الابتهال والدعاء لهم وأن يرضيهم الله سبحانه عنه في الدنيا، أو إلى أن يسددهم عند المقدرة، أو في الآخرة إذا مات قبل القدرة. التوبة، والإنابة، والأوبة:

من تاب خوفًا من العقاب فهو (تائب)، ومن تاب طمعًا في الثواب فهو (منيب)، ومن تاب لأمر الله تعالى له بالتوبة فهو (أوَّابٌ).

تسويفك التوبة ذنب يحتاج إلى توبة، فوق أن التسويف يضعف النفس ويوهنها فهو عكس مقصود الشرع من التوبة.

والدعاء يعين على التوبة - بدايتها واستمرارها -: يتوجه المسلم إلى الله بصدق ويلح عليه أن يتوب عليه، فإن الله عز وجل إذا علم منه الصدق تاب عليه ووفقه إلى التوبة وثبته عليها .
ومن تاب الله تعالى عليه ونقله من حالة الإساءة إلى حالة الإحسان يجدر به أن ينشغل بالطاعات ويقبل عليها ولا يلتفت وراءه إلى زمن المعاصي والمنكرات فإنه الاشتغال بالطاعة والإقبال عليها يصرف همه عن هذه إلى هذه.

ومن عوامل الثبات على التوبة: الترقي في درجاتها، يتوب من الذنوب، ثم يتوب من الغفلة، ثم يتوب من التقصير في الطاعة.

ومن عوامل الثبات على التوبة: ملاحظة حلاوة الطاعة بعد مرارة المعصية - في طمأنينة القلب، وسكينة النفس، واستقامة الجوارح - فإنه إذا شعر بذلك عظم هربه من تلك المرارة وطلب المزيد من تلك الحلاوة.

أيها التائب، إذا استشعرت حلاوة الطاعة فلا تفرط فيها بحال من الأحوال، زد من أسبابها وأزل معوقاتها، وامنع مشوشاتها، فإنها علامة القبول وباب السعادة والسرور...

علامة خلوص القلب من الذنب:
أنك إذا ذكرته لا تجد في نفسك حلاوته وإنما تجد مرارة على الوقت الذي قضيته فيه والخير الذي فاتك بسببه.

من معوقات ابتداء التوبة وأسباب فشل استمرارها إذا أخذ العبد القرار بها: ملاحظة الخلق. فينبغي للعبد أن يراعي ربه تبارك وتعالى ولا يعلق نظره بالمخلوقين. وليعلم أن الخلق لن ينفعوه بشيء إذا نزل به غضب الله وعذابه. وليجتهد في الفرار من الخلق إذا وقفوا بطريقه إلى ربه سبحانه ولو بالانتقال من مكان إقامته إلى مكان غيره.
لا يكفي في التوبة أن يقول العبد بلسانه: "أستغفر الله العظيم واتوب إليه" وهو بقلبه وأعضائه مقيم على المعصية. وقد مر معنا أن من أركان التوبة أو شروطها: ترك الذنب ومفارقته، فأقلع عن الذنب ثم استغفر يتب الله عليك ويغفر لك.

يكفي في الحث على التوبة: استحضار قوله تعالى: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين}، فأخبر سبحانه وتعالى أنهم يحب من تاب إليه، فغير التائب محروم من هذه المنحة العظيمة والتائب يفوز بها.

من علامات صدق التوبة: طول الانكسار، وملازمة الاستغفار، والمداومة على الطاعات، والحرص على الزيادة منها.

ربما قرأ البعض أو سمعوا في قصص التائبين أن أحدهم تاب بسبب موقف أو بسبب كلمة، فظنوا أن التوبة تأتي هكذا سهلة، فإذا تعبوا هم في تحصيل التوبة فإن من دلائل ذلك التعب: أن الله تعالى لم يرض بهم أو لم يقبلهم! وهذا غير صحيح، فإن المنقول في تلك القصص عادة يكون لمحة من الحال وليس جميع الحال، ومن وراء تلك اللمحة مجاهدات تنقلها إلينا بعض قصصهم التي عني فيها الناقلون بسرد التجربة الكاملة.

2. المجاهدة

ومن بدايات مقامات السالك إلى الله تعالى: مقام المجاهدة، وهو باب الهداية، قال الله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}، وإنما يفتح عليه بسبب لزومها، فقم بها تجد في جلوسك بعدها راحة وتحرك بها تجد في سعيك بركة.

ومظنة المجاهدة: الشباب حيث القوة والنشاط والجد، وفاتحة التوبة حيث الشدة، والشرة والعزيمة والإقبال.

ومن وسائل اكتساب المجاهدة:
مغالبة الطبع في اليسير ومخالفة النفس في المعتاد من الأمور، فمن أمسك لسانه لم يطعه في كل كلام، وأمسك عينه فلم يطعها في كل نظر، ولم يجب بطنه إلى كل طعام تشتهيه، ولم يجب قلبه إلى كل نوم يطلبه.. أدرك من ذلك شيئًا كثيرًا .

... غاية العز في غاية الذل، فمن أذلَّ نفسه لله عزَّت ومن أعزَّها عن الله ذلَّت ...

من مجالات مجاهدة النفس: مخالفتها إذا أرادت الانهماك في الشهوات بالتقوى، ومخالفتها إذا امتنعت عن القيام بالطاعات، ومخالفتها إذا استجابت لثورة الغضب بالخلق الحسن، ومخالفتها في حب الظهور بتذكيرها بأصلها.

وينبغي أن يحرص السالك على الترقي في باب المجاهدة: يجاهد نفسه على فعل الطاعات، ثم على تكميلها، ثم على تجويدها، ثم على تكثيرها، ثم على تصفية الأحوال في جميع الأوقات.

ومن مجالات مجاهدة النفس: أن يمنع السالك نفسه من الركون إلى المدح والميل إلى الثناء، وهو في الجملة نوعان: محمود ومذموم، فمن مُنع عنه الثناء فآل حاله إلى الكسل والفشل والبطالة فهذا مذموم، وما لم يحمل على هذا فليس بمذموم.

وفي الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

ومن مجالات مجاهدة النفس[1]: وهو أعلاها وأغلاها وأوجبها وأفرضها: مجاهدتها في تحسين النية وتخليصها من مشاهدة الخلق وتجريدها لله وحده.

من حب الله للعبد: أن يوفّقه لطريق ذلِّ النفس بين يديه سبحانه فإنه تمام العزِّ، ومن غضب الله على العبد: أن يحجبه عن ذلك فإنه تمام الحرمان.

ومن مجالات المجاهدة المهمة:
مجاهدة النفس على التخلص من أمانيّها وغرورها، فإنها تتمنى بدون عمل وتتحلى بما لم تكسبه وتحب أن تحمد بما لم تفعل، وتغتر بعملها وإن كان قليلًا، وإن كان ناقصًا، وإن كان غير مجود.

[1] اعتنى فضيلة الشيخ شريف فوزي - وفقه الله تعالى - بشرح هذا الباب - المجاهدة - خلال الشهر الكريم، وهذا رابط القناة التي تنشر فيها الدروس: https://t.me/sherif50

ومن مجالات المجاهدة المهمة:
وهي مما له أثر عظيم في ترقية الهِمَّة وتقوية العزيمة: تعويد النفس على المنافسة في الخيرات، والقصد إلى المهمات الكبيرة، على نحو ما قيل: «اقصد البحر وخلّ القنوات»، ومن جميل ما قاله بعضهم في هذا المعنى: «ما هالني شيء إلا ركبته».

ومن مجالات مجاهدة النفس: مجاهدتها في الامتناع عن الآفات المانعة من الثبات على الطريق والاستمتاع به، مثل: أكل الحرام، والنظر الحرام، والاستماع للحرام، والأقوال الحرام.

ومن مجالات مجاهدة النفس:

- الإيثار.
- وألا ينتقم المرء لنفسه.
- وألا يحتقر أحدًا.

فإن بخل، عاقب نفسه بحرمانها مما بخل به، وإن انتقم.. عاقب نفسه بالتواضع لمن انتقم منه والاعتذار إليه، وإن احتقر.. عاقب نفسه بالإحسان إلى من احتقره وقام على خدمته حتى يزول ذلك المعنى من نفسه.

نور النفس يأتي من سرها الذي بينها وبين ربها تبارك وتعالى فمن وفقه الله تعالى إليه أضاءت نفسه وسكنت واطمأنت، وهذا السر هو الإخلاص لله والتوكل على الله، فمن أدركهما أدرك كل شيء ومن لم يدركهما فاته كل شيء، فاحرص على أن يكون لك سر؛ فهو حاملك من الضعف ومبلغك من العجز وسائقك من الكسل وهاديك من الضلالة.

من استحسن فعل نفسه، لن يرى عيوبها، فاتهم نفسك وتحسس عيوبك، وابدأ في علاجها، ولا تتهاون، فإن صلاح الدابة من ضمانات السلامة.

من سرّه أن يأتي الله تعالى غدًا سالمًا، فليُخلص نيته، وليجتنب الشهوات، وليذكر الموت، وليؤثر رضا الله عز اسمه على كل أحد، وليطرح هواه ويتبع رسول الله ﷺ، ولا يترخص بزلَّة عالم.

3. الخلوة والعزلة

ومن مقامات أهل السلوك: الخلوة والعزلة. فمن أراد صفاء قلبه والاتصال بربه فليأخذ زاده منهما، يبتغي بذلك طلب الخير وينوي سلامة الناس من شره. وهو في ذلك يخالط الناس في الواجبات والمستحبات وإنما يعتزل عند المنكرات والمكروهات والمباحات.

من ضروريات العزلة: تحصيل قدر من العلم يصحح به العبد عقيدته وعبادته وأخلاقه، فمن فعل ذلك فقد أسس بنيانه على قواعد محكمة وأسس متينة، ومن لم يفعل فقد أسس بنيانه على شفا جرف هار يوشك أن يؤتى على بنيانه من القواعد ويخر عليه السقف من فوقه.

ومن لم تتيسر له العزلة في وطنه فليعتزل خارجه، ومن لم يتيسر له الأمران فليعتزل بروحه وسرّه وإن وجد بين الناس ببدنه: ليعتزل أماكن السوء، وأصدقاء السوء، وأحوال السوء، وصفات السوء، فهو كائن فيهم ببدنه بائن عنهم بروحه وسرِّه.

وربَّ مسافر يقطع المسافات وهو لم يفارق نفسه، وقد فارقها من لم يبرح مكانه، وهذا مقصود العزلة.

مقصود الخلوة الأعلى: مفارقة النفس، وأهدافها: الخلوة بذكر الله تعالى، وطلب رضاه، وتحقيق التوكل، وجمع شتات القلب.

والأنس في الحقيقة ليس بالخلوة، وإنما الأنس بالله تعالى في الخلوة، وفي هذا خير الدنيا والآخرة، وقد أشاروا إلى شرفها من خلال اسمها فقالوا: من آثر العزلة، خصل العزُّ لهُ.
ومن شروط العزلة: أداء حقوق الله تعالى، والحرص على أكل الحلال.
ومن أهداف العزلة: تحصيل الإخلاص، فمن أدمنها وقام بحقوقها حصَّل الإخلاص وتخلص من مشاهدة الناس.
في العزلة: سلامة، وفي المخالطة: ثواب، وكلاهما لا يستغني عنه العبد، وفيهما تربية كلٌّ بما يناسبه، ففي العزلة: مكابدة، وفي المخالطة: مداراة.
من فوائد العزلة: الأنس بالله، وسلامة الدين، وراحة القلب وشفاؤه، وعز الطاعة، وراحة البدن، وفي هذا خير الدنيا والآخرة.

4. التقوى

التقوى جامعة الخيرات، ويكفي في الحث عليها حديث: "آل محمد: كلُّ تقيٍّ"، ومعنى التقوى: التحرز بطاعة الله تعالى عن عقوبته، وتكون: باتقاء الشرك، ثم المعاصي والسيئات، ثم التحفظ من الشبهات، ثم ترك الفضول.

وحق التقوى: طاعة بلا عصيان، وذكر بلا نسيان، وشكر بلا كفران، فليجعل السالك هذا هدفه الأعلى، وليمض إليه على طريق ذي مراحل يترقى فيه من مرحلة إلى التي فوقها. ومن أدرك - بهذه الطريقة - هدفه.. فقد أدرك، ومن اخترمته المنية قبله.. كتب الله أجره بنيته.

التقوى هي الزاد الذي يقطع به السالك مراحل الطريق في الدنيا، والثمن الذي به يرث المنازل في الجنة. من فوائد التقوى: الرغبة في الآخرة وإيثارها، وهوان أعراض الدنيا على القلب والإعراض عن زخرفها ومتاعها.

والتقوى ذات منازل، فمنزلتها الأولى: مجانبة ما يبعدك عن الله عز وجل، ومنزلتها الثانية: الحرص على ما يقرب منه، ومنزلتها الثالثة: مجانبة ما يشغل عنه.
ومن فوائد التقوى: طيب النفس والرضا بما في اليد، وصدق التوكل على الله فيما لم تحصله بعد، وجميل الصبر على ما فاتها منه.

من وسائل تحصيل التقوى: العلم، فإنه النور الذي يكشف له ما يأتيه وما يجتنبه ويرغبه في عمله ويرهبه من تركه ويذكره ثوابه ويحذره عقابه.

ومن وسائل تحصيل التقوى: استخدام الحلال المحض في الغذاء والدواء واللباس.

وبالجملة: ثمرات التقوى لا تعد ولا تحصى، وهل ينجو من ينجو يوم القيامة إلا بصدق التقى كما قال سبحانه: {وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم}، تكلّ الألسن عن وصف ربح المتقي، ويكفي من ذلك: العلم بأنهم سادة الناس في الآخرة.

5. الورع

ومن مقامات السلوك: الورع، وهو: ترك ما سوى النافع المحض، ويدخل في هذا ترك الشبهات، وترك الفضول في المنطق والنظر وغيرهما، وترك جزء من الحلال مخافة الوقوع في شيء من الحرام.

مقاصد الورع:

- تحسين الإسلام ففي الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».
- التمرن على الزهد، فإنه أوله.
- والتعبد به، فإن من كان ورعًا كان أعبد الناس.
- وخفة الحساب في الآخرة.
- والاقتداء بالصحابة الكرام، فإنهم كانوا يدعون سبعين بابًا من الحلال مخافة أن يقعوا في باب من الحرام.

ومن وسائل تحصيل الورع:

- التدرج إليه عن طريق التقلُّل.
- وتعلُّم دينِ الله تعالى في كل شأنٍ والوقوف على حدِّه من غير تأويل.
- محاسبة النفس على الدوام.
- وتمحيص النية في كل حركة.

ومن عرف ثواب الورع سهل عليه العمل به.

أيسر درجات الورع: ترك ما حاك في الصدر.

ومن عظم ورعه، ازدادت هيبته، وأشد الورع؛ الورع في الخلوة.

ومن وسائل اكتساب الورع وتربية النفس على تحصيله: النظر في أحوال أهله، وقد وردت عنه في هذا أخبار جليلة في أنواع منه منها الشديد واليسير والوسط.

6. الزُّهد

ومن مقاماتهم: الزهد، فإنه طريق الحكمة، وهو أنوع، منه الزهد في الحرام وهو واجب، ومنه الزهد في التوسع في الحلال مع صرفه إلى الطاعات وهو فضيلة.

من مجالات الزهد: قصر الأمل في الدنيا، وإخراج الرغبة فيها من القلب والإعراض عنها وإن ملكتها اليد، وعدم الفرح بالموجود ولا الحزن على المفقود، والجود بالمال والسخاء به مع الراحة في ذلك.

من أمارات الزهد: الثقة بالله وخلو القلب من تتبع المال وبغض من كانت الدنيا همه.

وينبغي أن يحرص السالك على الترقي في منازل الزهد منزلة بعد منزلة.

- فأول منازل الزهد: ترك الحرام.
- والثانية: ترك الفضول من الحلال
- والثالثة: ترك كل ما يشغل عن الله تعالى.

ومن مجالات الزهد: الزهد في الناس، وكثير من الزهاد يقدر على الزهد في الأشياء ولا يقدر على الزهد في الناس فإنه شديد.

7. الصَّمْت

ومن مقامات السالك: الصمت، وفي الحديث: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»، «احفظ عليك لسانك».
ولا ريب أن الصمت الممدوح هو الصمت الذي جاء النص في الكتاب والسنة بمدحه فإذا طلب الشرع الصمت أو طلب النطق.. امتثل طلبه.

ومن شرف الصمت: أنه جاء الأمر به في الوقوف بين يدي الله تعالى في الدنيا: {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا}، وفي الآخرة: {وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا}، وقد وعى الجن هذا الأدب في الاستماع للقرآن من رسول الله ﷺ، {فلما حضروه قالو أنصتوا}

من بواعث التزام الصمت :
صيانة النفس من الوقوع في الحرام، والهيبة من الله تعالى أن يرى العبد على حال لا يرضيه، وتعظيم الملكين أن يسمعهما ما يؤذيهما أو يكتبان عليه ما يعاقب عليه أو ما لا فائدة فيه.

في السكوت نجاة من الآثام، ومخالفة لشهوة النفس الكلام، ففيه صيانة وتهذيب، ومن ثم تحتاج إلى مجاهدة ورياضة، وقد قالوا: «إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم»

ومن ثمرات الصمت: الحكمة.
من وسائل كسب صفة الصمت وتحصيله: الخلوة، وشغل القلب واللسان ثم سائر الجوارح بالطاعات، وتوطين النفس عليه، والعلم بفضائله، ومطالعة أخبار أهله، ومرافقة قدوة يعمل به.
وأن يعدَّ كلامه من عمله، فإن من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

والصمت من أكبر العون على التوبة، حتى قالوا: "لا تصح لأحد توبة حتى يلزم نفسه الصمت".

لكل عضو من الأعضاء نصيب من الصمت، وأظهرها اثنان: اللسان، وصمته: أن يصمت عن النطق، والقلب، وصمته: أن يصمت عن الفكر في غير ما يفيده الثواب.

وينبغي أن يحرص السالك على الترقي في درجات الصمت فإنه منازل:
- فأولها: الصمت عن الحرام،
- وثانيها: الصمت عن المكروه،
- وثالثها: الصمت عن الفضول الزائد عما يعنيه وما لا بد له منه،
- ورابعها: الصمت عما ليس فيه ثواب،
- وخامسها: الصمت عن الخواطر.

من مجالات العمل بالصمت :
- تأديب النفس على الإساءة فيعاقبها بذلك.
- وعبادة الله بالإحسان في الصمت كما أحسن في الكلام.
- والتأدب بحضرة من هو أولى منه بالكلام فيلتزم الصمت ويقدمه.
- ومنع الكلام غيرة على العلم أن يسمعه من ليس له بأهل، أو من يفتن به ويضعه في غير موضعه، أو من يستعمله في باطل.
- والرغبة عن المشاركة فيما لا يحل.
- والرغبة في تعليم الغير أن واجب الحال الصمت.
- أو كان هذا الأولى بالحال كمن رأى مِن نفسه حب الكلام فعاقبها بتركه.

8. الخوف

ومن مقاماتهم: الخوف {يدعون ربهم خوفًا وطمعًا}، فإنه من أعظم الوقايات التي يتقي بها العبد النار، وهو أثر من آثار العلم بالله لا ينفك عنه، وبقدر علم العبد يحصل له مقدار منه: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتكم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»

يخافون أن يحرمهم الله من ثوابه وما يحبونه أو يحل بهم عقابه وما يكرهونه، وذلك في الدنيا والآخرة.

والخوف درجات، منه ما هو واجب فرضه الله تعالى على العباد: {وخافون إن كنتم مؤمنين}، {وإياي فارهبون}، ولهذا جعله صفة المؤمنين: {يخافون ربهم من فوقهم.{
فهذا شرط في الإيمان لا يصح الإيمان إلا به.

ومنه فضل ومنزلة يحصل لمن عرف الله وعلم بجلاله: {إنما يخشى الله من عباده العلماءُ}.

ومقصود الخوف: تأديب النفس وإلزامها الطريق المستقيم، فهو سوط يقوّمها إذا اعوجّت وينهضها إذا قعدت ويقبل بها إذا أعرضت. والخوف ينفع في حمل النفس على الطاعة، وينفع في منعها من المعصية، وينفع في ترقيتها في درجاتهما. والخوف يكشف للمرء عن حاله على التحقيق إن كان محسنًا أو مسيئًا، ثم يمنعه من التبرير والتسويف لنفسه، ثم يبصره بطريق الخير وطريق الشر، ثم يسلك به طريق الخير على بصيرة.

والخوف نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود هو: ما نقلك إلى الخير، والمذموم هو: ما لم ينقلك إلى ذلك. فإن الأصل أن الخوف سراج يضيء الطريق المستقيم للقلب ليسلكه، فإن سلكه فهو الخوف النافع وهو الذي طلبه الشرع ويحمد صاحبه وما لم يكن كذلك فهو مذموم.

والخوف معيار للعابد والعالم يقيس به كل منهم حاله؛ ليعلم على جد هو أو هزل، في خير أو شر. فالخوف يحمل صاحبه على ترك ما يعذب عليه، ويمنعه من فعل ما يقصر به عن الذي يطلبه ويرجوه.

والوجه مع الخوف بكل أنواعه - من النفس، أو من الشيطان، أو من الدنيا، أو من الناس، أو من الله تعالى: أن يهرب العبد إلى الله تعالى، فهو جهة الأمان الوحيدة القادرة على تحصينه وتأمينه.

من وسائل تحصيل الخوف:

- العلم بالله وآياته.
- وتأمل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب وحال من تبعه عليه.
- والعمل بالتقوى.
- وأن ينظر العبد في أنواع تقصيره وما يفوته من الخير بسببه وما ينتظره من العقاب عليه.
- وأن ينزل نفسه منزلة المريض يحتمي من كل شيء مخافة طول مرضه ويتناول كل شيء يساعد على شفائه.
- التأمل في محاسن وجود الخوف ومساوئ فقده.
- التفكر في القدوم على الله تعالى.
- ومن وسائل تحصيل الخوف من الله تعالى وعوامل تثبيته في القلب: دوام المراقبة في السر والعلانية، والخشية من تغير الحال إلى ما لا يرضاه.
- ومن وسائل تحصيل الخوف من الله تعالى: النظر في أحوال من نكصوا ومن انقلبوا وانتكسوا..
أحوال من بدل الله تعالى ما كان بهم من أنس إلى وحشة، ومن طاعة إلى معصية، ومن لم تنفعهم علومهم وصحبة الصالحين، فيبقى على الحذر.
- والعلم بقدر الله تعالى وعظمته.
- وتأمل العقوبات على المعاصي.

ومن مجالات الخوف: الخوف من مفارقة الأحوال الطيبة إلى أضدادها.

وضابط الخوف المشروع: ألا تقنط من رحمة الله تعالى.

من علامات الخوف: الاستقامة، والورع عن الآثام في الظاهر والباطن، وقصر الأمل، والوجل من عدم قبول العمل، وذكر الموت وما بعده. فمن لم تكن عنده هذه العلامات فليس بخائف.

ومن ثمرات الخوف إذا سكن القلب: أنه يحرق مواضع الشهوات فيه، وأنه يطرد الدنيا منه، وحل به اليقين وزال عنه الشك، وأنه يضبط الرجاء حتى لا يكون غرورًا، وأنه يحمل المرء على العمل.
ومن ثمرات الخوف في الدنيا: الأمن في الآخرة.

وبقدر ما يحمل المرء نفسه على الخوف ويرهّبها ويعمل بالخشية معها.. ينبغي أن يكون مع المسلمين بخلاف ذلك: يرجو لهم الخير والنجاة، ويلتمس لهم المعذرة ما أمكن ذلك من الشرع دون تأويل ولا تكلف.

قال بعضهم: «ما رأيت رجلًا أعظم رجاء لهذه الأمة ولا أشد خوفًا على نفسه من ابن سيرين».

9. الرجاء

ومن مقاماتهم: الرجاء، وهو التعلق برحمة الله تعالى والطمع في كرمه وعفوه ومنّه ولطفه يؤمل حصول ذلك له، ولا بد معه من العمل بجد وجهد وإلا كان تمنيًا وهو مذموم. ولهذا قالوا: علامة الرجاء حسن الطاعة.

والرجاء منه رجاء صادق ورجاء كاذب..

فالرجاء الصادق أن يعمل حسنة ويرجو قبولها، وأن يعمل سيئة ويتوب ثم يرجو المغفرة.
والرجاء الكاذب: أن يتمادى في الذنوب ويقول: أرجو المغفرة.

والرجاء والخوف كلاهما مثل الدواء، يستعمل بقدرٍ ويستعمل في حال الحاجة إليه..

- فمن عرف من نفسه الإساءة والمعصية.. استعمل معها الخوف، ويجعله زائدًا لأجل هذه الحالة عن الرجاء.
- ومن عرف من نفسه اليأس والقنوط مع حسن طاعة وجميل شكر.. استعمل معها الرجاء، يجعله زائدًا عن الخوف.

وهكذا يعالج نفسه ويداويها بما يناسب حالها، من هذا مرة ومن هذا مرة.

والرجاء - مع حسن العمل- من أجمل عطاءات الله تعالى للعبد، فإن اعتماد العبد حينها يكون على: عفو الله تعالى وليس على عمله وسعيه، واستبشاره بكرمه وثقته في جوده لا في بذله هو ومجهوده.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تعالى: «أنا عند ظَنِّ عبدي بي، فَلْيظُنَّ بي ما شاء».

ومن ثمرات الرجاء: أنه يبعث على العمل والجد والنشاط والبذل وتفتح باب الأمل وتغلق باب اليأس والقنوط ويقطع الطريق على الشيطان.

ومن وسائل تحصيله: العلم بعظم عفو الله وسعة رحمته، وتدبر آيات الرجاء وأحاديثه، وإحسان الظن بالله تعالى.

وضابط الرجاء المشروع: ألا يتجرأ العبد معه على محارم الله تعالى.

10. الحزن

ومن أوصاف أهل السلوك: الحزن، وهو كفارة للذنوب كما في الحديث: «ما يصيب المسلم من نَصَب، ولا وَصَب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها.. إلا كفر الله بها من خطاياه.«

ومما ورد في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان متواصل الأحزان، دائم الفكر.
وهذا في قلبه صلى الله عليه وسلم، أما في وجهه فقد كان أكثر الناس بشرًا.

هذا إن قبض الحزنُ القلبَ عن التفرُّق في أودية الغفلة، وعمَره باليقظة، ونهض به إلى الطاعة، وجعل همه همًّا واحدًا وصرفه إلى الآخرة.

11. الجوع

ومن صفاتهم: الجوع، وهو أحد أركان المجاهدة، ومنه تتفجر ينابيع الحكمة، وقد جاع نبينا صلى الله عليه وسلم حتى قال لفاطمة وقد أتته بكسرة من قرص شعير: «أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام.«

ومن وسائل تحصيله :
-التخفيف في الأكل، ثم الاقتصار على أكلة في اليوم، ثم التدرج إليه بالصوم، ثم الوصال فيه ليوم، ثم طي الأيام فيه.

والوقوف على ثمراته، ومنها: البعد عن المعصية والجهل، وتحصيل العلم والحكمة، ومنها: ترقيق القلب، ومنها: تحصيل العزم، ومنها أنه مفتاح الآخرة.

ومن مقاصد الجوع: تأديب النفس، وهو طريق رياضتها للتغلب على الشهوات والشيطان، وحمايتها من مصير أهل النار الذين غلبت شهوتهم حِميَتهم فافتضحوا.

12. الخشوع والتواضع

ومن صفاتهم: الخشوع والتواضع، ومعناهما: الانقياد للحق والاستسلام له وترك الاعتراض عليه. قال تعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا}، {قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون}، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبرى.

والخشوع أول ما يفقده المسلمون من دينهم.

ومن أمارات الخشوع والخضوع: قيام القلب بين يدي الله تعالى بهمٍّ مجموع، هذا في علاقته بالله تعالى، وفي علاقته بالخلق: أنه إذا أغضب أو خولف أو رد عليه.. استقبل ذلك بالقبول.

ومن ثمرات الخشوع والتواضع: سدُّ مداخل الشيطان، وضبط النظر، وخمود الشهوة، ويقظة القلب، وسلامة الصدر، وسكون الجوارح، وتعظيم الرب، ورفعة القدر عنده تعالى.

ومن وسائل تحصيل الخشوع والتواضع: العلم بالله، وباطلاعه على خلقه، وبعظمته، وبقدر النفس وسوء عملها، وبفضائلهما، وبسوء أضدادهما.

ومن المحذورات في هذا الباب: أن يري الرجل من نفسه الخشوع وهو في الحقيقة ليس بخاشع، أو يري منه أكثر مما في قلبه.

أحصيت مجالات التواضع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الصالحين فوقعت على هذه الأمور:
-فمنها في حياته صلى الله عليه وسلم :

- أنه كان يعود المريض.
- يشيع الجنائز.
- يركب الحمار، وقد شد رأس الحمار بحبل من ليف ووضعت عليه برذعة من ليف.
- يجيب دعوة العبد.
- يعلف البعير.
- يقمُّ - يكنس - البيت.
- ويَخصِف - يصلح - النعل.
- ويرقع - يخيط - الثوب.
- ويحلب الشاة.
- ويأكل مع الخادم.
- ويطحن معه إذا أعيا.
- ويحمل بضاعته من السوق إلى أهله.
- ويصافح الغني والفقير.
- ويسلم مبتديًا.
- ولا يحتقر ما دعي إليه ولو إلى حِشف - رديء - التمر.

وغير هذا من شمائله صلى الله عليه وسلم التي لا تجتمع في غيره ولا يفضله فيها غيره.

ومنها في حياة غيره صلى الله عليه وسلم :

- يسجد على التراب.
- يخدم نفسه.
- ويقبل الحق من كل من يقوله.
- ويخفض الجناح ويلين الجانب.

- ويذم نفسه ولا يرى لها فضلًا على أحد.
- ويعظم أهل العلم والفضل.
- ويؤدب النفس بمباشرة العمل الدنيء عند الناس.
- ويخدم الفقراء.
- ويترك التميز على الناس في المجلس وغيره.
- ويشرب من سؤر - باقي شراب - غيره.
- ويترك الترفع في الملبس والمأكل.
- ويرى غنى الناس عنه.
- ويبالغ في الانكسار لمن آذاه حتى يصفح عنه.
- ويجيب دعوة الصبيان ولا يستنكف من مخالطتهم.
- ويبر قسم أخيه.
- وغيرها من المآثر المتنوعة.

13. مخالفة النفس وذكر عيوبها

ومن صفاتهم: مخالفة النفس وذكر عيوبها، فإن فيه النجاة وهو رأس العبادة. وأما اتباع هوى النفس فإن فيه الصد عن الحق والرد إلى الهلاك.

وهل الإسلام إلا الخروج من هوى النفس إلى الانقياد لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم!

ويعين على ذلك: تعلم العلم، وصحبة المربين والإصغاء للناصحين.

ومن ثمرات مخالفة النفس :

- الأنس بالله تعالى بدل الأنس بها.
- والوثوق بالصواب في مضادة أهوائها.
- والتغلب على شهواتها المختلفة وعلاجها.
- ومحاسبتها لرؤية الخطأ والصواب - قبل العمل لتعلم حكمه وحكمته وأولويته والتخطيط له، وبعده لرؤية صوابه ومبلغ ذلك والنية فيه ومعالجة النقص.-
- وردها إلى الأدب مع الكتاب والسنة بأن لا تتقدمهما، بل تتبعهما.
- وكفها عن الدعوة إلى الشرور والمفاسد.
- وجعلها معينة لا معيقة.

من لم يخالف هوى نفسه حجبته عن الله تعالى، وجلبت عليه مقته وغضبه، وإنه ليجد أثر ذلك في الدنيا والآخرة.

والنفس ماكرة، فلا ينبغي أن يرضى العبد منها بما هو فيه، فإن هذه هي الآفة.

وليحملها على الحق:

- الفرائض.
- فالنوافل.
- فالإفراط في اللهو والمباح.

14. القناعة

ومن صفاتهم: القناعة بما قسم لهم من الرزق والاكتفاء بالموجود وزوال الطمع فيما ليس بحاصل.

- وهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله سبحانه: {من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة.}
- وهي الرزق الحسن في قوله تعالى: {ليرزقنهم الله رزقًا حسنًا}، وهي الكنز الذي لا يفنى، وهي عز - أي عز لصاحبها وغنى - أي غنى - له، وهي أول الرضا.

وصاحب القناعة أشكر الناس.

من ثمرات القناعة: طيب العيش، وقلة الهم والحزن، والتخلص من الحرص على الدنيا والتكالب عليها، وراحة القلب ونعيمه، وعلو اليد وعز النفس ومروءتها، وكف العين عما في أيدي الناس.

ومن وسائل اكتساب القناعة: الرجوع إلى الله تعالى في كل حال، والتفكر في فوائد تحصيلها وعواقب فقدها.

ومن أمارات القَنوع: أن يعين الناس من نفسه قدر طاقته، وألا يحمّلهم لنفسه فوق طاقتهم.

15. التوكل

ومن صفاتهم: التوكل، ويكفي في بيان فضل التوكل قوله تعالى: {ومن يتوكل على الله فهو حسبه}، وإخبار النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب.

والتوكل منازل، فمنه الواجب المأمور به في قوله تعالى: {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين}، ومنه الفضل وهو أن يعتصم بالله في كل أمره ويثق بأن كل شيء بتقديره وتدبيره ويرضى بكل ما يفعله الله به.

والأخذ بالأسباب لمن تحقق أن التقدير من قبل الله تعالى لا ينافي التوكل ففي الحديث: «اعقلها وتوكل»، لكن ينبغي ألا يظهر فيه انزعاج إليها فإن أعطي شكر وإن منع صبر.

ومن جميل ما قيل في هذا قول سهل بن عبد الله: "التوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم والكسب سنته، فمن بقي على حاله فلا يتركن سنته" .

ومن وسائل تحصيل العبد التوكل:

- العلم بأن الحق سبحانه وتعالى يعلم ويرى ما هو فيه.
- والانخلاع من الحول والقوة.
- والتحقق بأن التقدير من قبل الله تعالى فإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره.
- ورد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد.
- والاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.
- وتمثل أحوال أهله.
- والتعلق بالله في كل حال.

ومن علامات المتوكل: أن يستوي عندك القليل والكثير، والاستسلام لجريان القضاء والأحكام، والاكتفاء بالله، والإيثار، وترك الطمع واليأس عما في أيدي الناس.

والتوكل درجات:

- أوله: نفي الشكوك والسكون إلى وعد الله،
- وأوسطه: التسليم والاكتفاء بعلم الله،
- وآخره: التفويض والرضا بحكم الله.

16. الشكر

ومن صفاتهم: الشكر، يعترفون بنعمة المنعم على وجه الخضوع ويثنون عليه بذكر إحسانه إليهم واستعماله في طاعته.

ومن هنا نعلم أن الشكر يجتمع عليه القلب واللسان والجوارح.

والشكر طريق المزيد كما قال عز اسمه: {لئن شكرتم لأزيدنكم} فمن وفقه الله إلى الشكر فقد أراد أن يزيد إنعامه عليه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»،

وثمرات الشكر كثيرة، منها: المحافظة على بقاء النعمة، وأداء حقها، ونيل أجره، وذكر المنعم، وطلب مزيده، واستجلاب رضاه.

والشكر منه

- **واجب**، وهو ألا يعصي الله بنعمه،
- **وفضل** وهو ما فوق ذلك، وأعظم الشكر: الشكر على المعاني التي ترد على القلوب.

ولكل جارحة من الجوارح شكر: يشكر عينيه فيترك الحرام ويستر الزلات، ويشكر اللسان فيذكر الله ويجتنب المحرمات، ويشكر الأذنين فيسمع بهما الخير ويغلقهما عن سماع الشر ويستر ما يسمعه من عيوب الناس ونحو هذا.

17. اليقين

ومن صفاتهم: اليقين، قال تعالى: {وبالآخرة هم يوقنون}، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: "إن الله تبارك وتعالى بقسطه وحلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط".

وهو: استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحوَّل ولا يتغير في القلب وانتفاء الريب والمعارضات عنه.
وهو درجات.

ومن أمارات اليقين: الثقة بما عند الله، والقناعة برزقه، وقلة الاهتمام لغد، وقصر الأمل، وقلة مخالطة الناس وترك المدح لهم والتنزه عن ذمهم، والنظر إلى الله تعالى في كل شيء، والرجوع إليه تعالى في كل أمر والاستعانة به عز وجل في كل حال.

ومن وسائل تحصيل اليقين: زيادة الإيمان وتحقيقه، وطلب العلم وتوثيقه، والدعاء الله به والإلحاح عليه فيه، والطمأنينة إلى وعد الله والتعظيم لوعيده والتصديق لخبره، والعمل بالتقوى.

ومن ثمرات اليقين أنه: ينير القلب، وينفي عنه الريب، ويملؤه بالخوف من الله والشكر على عطائه، ومعرفة الله تعالى، ورؤية عطاء الله في السراء، والضراء، والعافية، والبلاء.

18. الصبر

ومن صفاتهم: الصبر.
وقد أمر الله به في قوله تعالى: {واصبر وما صبرك إلا بالله}، وهو: تجرع المرارة من غير تعبيس أو اعتراض، وهو شديد حتى قيل: "الصبر كاسمه" - أي: في المرارة والمشقة وشدة المعاناة في التداوي به -، وقيل: "والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره".

والصبر درجات: متصبِّر - يحاول الصبر ويحمِل نفسه عليه مع وِجدان أثقال ذلك -، وصابر قد سكن مع هذا خاطره -، وصبّار - قد صار هذا عادة له -.

والصبر أنواع: صبر على المأمور، وصبر عن المحظور - وكلاهما كسب للعبد -، وصبر على المقدور - وهذا ليس بكسب له -.

ومن أمارات الصبر:
- الثبات مع الله تعالى على أحكام الكتاب والسنة.
- والتباعد عن المخالفات.
- وتلقي البلاء بالرحب والدعة والسكون وفي الحديث: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».
- وحسن صحبته.
- وإظهار ضده.
- وحسن الأدب مع الله خلاله، مثل أيوب عليه السلام قال في آخر بلائه: {مسني الضر وأنت أرحم الراحمين}، وترك الشكوى وسكون الخاطر،

وفضل الصبر عظيم:
- فهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل: أي الإيمان أفضل؟ قال: «الصبر والسماحة».
- وجزاء أهله أعظم الجزاء كما قال تعالى: {ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}.
- وهو مطية لا تكبو.
- وهو طريق الفوز بمعية الله تعالى: {إن الله مع الصابرين} وهي عزُّ الدارين.
- وهو طريق الإمامة {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا».

ومن وسائل تحصيل الصبر:
- الاستعانة والدعاء بأن يصبِّره الله تعالى كما قال تعالى: {واصبر وما صبرك إلا بالله}.
- والعلم بأن رضاه تعالى في الصبر.
- والعلم بأنه من أخلاق الله تعالى.
- والعلم بأنه مفتاح الفرج وعنوانه.
- والعلم بأنه طريق الحفظ والكلاءة: {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا}.
- والعلم بأن الحال تمر يثبت أجرها ويمضي مرها.
- والعلم بأنه مراد الله وعطاؤه وكل الذي يأتي به خير ورحمة.

19. المراقبة

ومن صفاتهم: المراقبة، وهي: علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم مراقبته لربه، وفي القرآن: {وكان الله على كل شيء رقيبًا}، وفي الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك».

ثمرات المراقبة:
المراقبة أصل كل خير للعبد، وهي التي تخلص سر العبد وعلانيته لله.

وطريق تحصيل المراقبة: محاسبة العبد نفسه على ما سلف وإصلاح حاله في الوقت ولزوم طريق الحق وإحسان مراعاة القلب وحفظ الأنفاس مع الله، والعلم بأن الله يعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله، وأن يُحكِم التقوى بينه وبين الله تعالى، وأن يسوس نفسه بالعلم.

والمراقبة درجات، فمنها: مراقبة الله في أعمال الجوارح، وأعلى منها: مراقبة الله في الخواطر.

ومن أمارات المراقبة: تقوى الله، وإيثار ما آثره الله، وتعظيم ما عظمه الله.

20. الرضا

ومن صفاتهم: الرضا. وفي القرآن: {رضي الله عنهم ورضوا عنه}، وهو نهاية التوكل، والرضا: سكون القلب إلى الحكم والقضاء وعدم الاعتراض عليه وموافقته بما رضي واختار. ومن أكرمه الله تعالى برضاه فقد لقاه من الترحيب أوفاه ومن التقريب أعلاه، وهذه هي جنة الدنيا.

وسائل تحصيل الرضا كثيرة، منها: أن يطلب رضا الله عنه فإنه يأتي بعده، ولهذا كان من علامة رضاه عنك أن تجد قلبك راضيًا عنه، والرضا بالقضاء، وأن يسلو عن الشهوات، والعمل بما أخبر الله ورسوله أن رضا الله فيه، واحتقار الدنيا.

ومن أمارات الرضا: ألا يتمنى العبد غير ما اختار الله عز وجل له، وترك السخط والجزع عند نزول البلاء أو فوت النعماء وسكون القلب وسروره،

ومن فضل الرضا وشرفه: أن العبد يكسب أوله ثم يمنحه الله تعالى نهايته، ولهذا يتفاوت الناس فيه ومن ثم تأتي عباراتهم عنه مختلفة.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا»، وقيل: كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: "أما بعد فإن الخير كله في الرضا فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر".

21. العبودية

ومن صفاتهم: العبودية، وهي: قيام العبد بحق الطاعات وافرة كاملة - مع شهود تقصيره فيها وطلب الصفح والعفو عن ذلك والتبرؤ من الحول والقوة -، ومجانبة المنكرات، قال تعالى: {واعبد ربك حتى يأتيك اليقين}، وفي الحديث: {وشاب نشأ في عبادة الله.«

والعبودية درجات، لكل درجة منها اسم: الأولى: (عبادة) وهذه لمن لم يدخر نفسه عن الله، والثانية: (عبودية) وهذه لمن لم يضن بقلبه على الله، والثالثة: (عبودة) وهذه لمن لم يبخل بروحه على الله.

ومن علامات تمام العبودية :
أن تكون عبدًا لله تعالى في كل حال، وأن تتهم أعمالك بالرياء وأحوالك بالدعاوى، وأن تخفي عن الناس حالك وتظهره لله تعالى، وألا ترد من أحكامه شيئًا ولا تدخر عنه شيئًا ولا تسأل غيره حاجة، وأن تفي بعهوده وتحفظ حدوده وترضى بالموجود وتصبر عن المفقود، ورؤية الفضل لله تعالى في إجرائه الطاعات على العبد.

وفضل العبودية عظيم، منه: أنها زينة العبد وأشرف أسمائه وخيرها وأتمها وأجلها، ولهذا ذكر الله به نبيه في أعظم المقامات: "التنزيل" و "الإسراء" و "الوحي" و "الدعوة".

22. إرادة بدء الطريق

ومن صفات القاصدين إلى الله تعالى: إرادة بدء الطريق. وإنما يكون له ذلك بترك الغفلة والركون إلى اتباع الشهوة والإخلاد إلى ما دعت إليه الرغبة، فينبغي أن ينسلخ القاصد عن هذا كله وينهض قلبه في طلب الحق سبحانه وتعالى. قال تعالى: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه}

ومن صفات المريد الصادق :
التحبب إلى الله تعالى بالنوافل، والخلوص في نصيحة الأمة، والأنس بالخلوة، والصبر على مقاساة الأحكام، والإيثار لأمره، والحياء من نظره، وبذل المجهود في محبوبه، والتعرض لكل سبب يوصل إليه، والقناعة بالخمول، وعدم القرار بالقلب إلى أن يصل إلى الرب، وأن يكون نومه غلبة وأكله فاقة وكلامه ضرورة، وأن يستغفر من الذنب، ويجتنب معاشرة الضد، ويترفع على الأخذ بالرخص.

ومن وسائل اكتساب الإرادة: المسارعة في مرضات الله تعالى، والمبادرة إلى العمل بما علم، والدعاء بالاستخدام.
فلا يفتر آناء الليل والنهار: يجاهد ويكابد، ويفارق الفراش ويلازم الانكماش، ويتحمل المصاعب ويركب المتاعب، ويعالج الأخلاق ويمارس المشاق، ويعانق الأهوال ويفارق الأشكال.. حتى يحصل ما يريده.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله»، فقيل له: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح قبل الموت.«

23. الاستقامة

ومن صفاتهم: الاستقامة، وهي: الخروج عن المعهودات ومفارقة العادات والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق، قال تعالى: {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا}

والاستقامة شرفها عظيم، فإن "بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيمًا في حالته ضاع سعيه وخاب جهده، قال الله تعالى: {ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا}، ومن لم يكن مستقيمًا في صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره ولم يبنِ سلوكه على صحة"، وفي التنزيل: {وأَلَّو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا.{

والاستقامة درجات، أولها: تقويم النفس وتأديبها وعلامتها: عدم الفتور، والثانية: إقامة القلوب وتهذيبها، وعلامتها: عدم التوقف، والثالثة: استقامة الأسرار وتقريبها، وعلامتها: عدم الانقطاع قدر الوسع، قال تعالى: {فاستقم كما أمرت}، وعن ثوبان مولى النبي ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير دينكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن.«

ومن وسائل تحصيل الاستقامة واكتسابها :

-أن يطلب العبد من الله تعالى أن يقيمه على توحيده ويستديم على عهوده ويحفظ حدوده.
-وأن يراعي أصول التوحيد: قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه في معنى قوله: {ثم استقاموا}: "لم يشركوا".
-وأن يفي بعهود الله ويترك التأويل كما قال عمر رضي الله عنه: "لم يروغوا روغان الثعالب".
-وتحصل الاستقامة في الأقوال بترك الغيبة، وفي الأفعال بنفي البدعة وفي الأعمال بنفي الفترة، وفي الأحوال بنفي الحجبة.

24. الإخلاص

ومن صفاتهم: الإخلاص.
وهو: إفراد الله في الطاعة بالقصد، وهو شديد: سئل سهل بن عبد الله التستري: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب"، لكنه ليس بمستحيل ولا عسير والحمد لله تعالى، {ألا لله الدين الخالص.{

والإخلاص درجات، أولها واجب، قال تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة} وهو ما لا يتم العمل إلا به.
ولا يزال يزيد حتى يحرق كل نفاق وداء في القلب وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث لا يَغُلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين»، ومعناه: لا يكون القلب عليهن ومعهن فيه مرض ولا نفاق أبدًا.

ومن وسائل تحصيل الإخلاص واكتسابه :
-أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون أي شيء آخر، وأن يصفي عمله عن ملاحظة المخلوقين، وأن ينتظر ثواب العمل في الآخرة، وأن يعرف بخطر الرياء على العمل: يسقط من عين الله تعالى ويضيع ثواب العمل ويتبدد جهده بلا فائدة، وأن يديم مراقبة الله تعالى، وأن يعمل في الخفاء مثل عمله في العلانية، وأن يحذر من خطره فهو يوقع في الشرك، وأن يرعى حال قلبه.
وأن يعلم أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا.
وأن يجعل عمله في السر أكثر من عمله في العلانية.
وتمام الإخلاص: بالصدق فيه، والصبر عليه.

ومن أمارات الإخلاص: ألا يعمل لأجل الناس ولا يترك العمل لأجلهم، قال الفضيل: "ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما".

ومن ثمرات الإخلاص: طاعة الرب، وحفظ الجهد، وإغاظة العدو، والتوفيق للحكمة في القول والفعل، وانقطاع كثرة الوسواس والرياء، ونيل الدرجات، وتحصيل الحسنات، واجتناب السيئات.

25. الصدق

ومن صفاتهم: الصدق، وهو: استواء السر والعلانية وموافقة السر النطق، وقد أمر الله تعالى به فقال: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين.}

ومكان الصدق عظيم، فهو عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو أساس قبول الأعمال.
ويكفي أنه الدرجة التي ليس فوقها غير النبوة، {فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين.}
وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة... ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا".

من وسائل تحصيل الصدق: تصفية السر، والتهيؤ للموت في كل وقت، وتصحيح التوحيد، وتحقيق الإخلاص، والاجتهاد في القرب منه تعالى، مرافقة الصادقين ومجانبة الكاذبين، وتقليل العلائق أو قطعها.

والصدق يدخل في **الأقوال** ومنه: قول الحق، ويدخل في **الأفعال**، ومنه: منع الحرام من الشدق، ويدخل في **الأحوال**، ومنه: الوفاء لله تعالى بالعمل. والصديق من صدق الله فيها جميعًا.

ومن ثمرات الصدق: معية الله {إن الله مع الصادقين}، والحلاوة، والهيبة، والملاحة، تصديق الله تعالى لعبده: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: "يا داود، من صدقني في سريرته صدقته في علانيته".

وعلامة الصدق:

- دوام التحري، قالوا: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة".
- واتهام النفس وعدم الركون إليها.
- وملء الوقت بالشغل: أداء فرض وعمل فضل، وأن تكون كما ترى من نفسك أو ترى من نفسك كما تكون.
- وعدم الحرص على القدر والمكانة في قلوب الخلق وعدم محبة اطلاعهم على حسن عمله وعدم كراهة اطلاعهم على السيئ منه.

26. الحياء

ومن صفاتهم: الحياء، وهو: وجود الهَيبة من الله تعالى في قلبه مع وحشة ما سبق منه إلى ربه، وهو انقباض النفس من شيء وتركه حذَرًا من اللوم فيه، قال الله تعالى: {ألم يعلم بأن الله يرى}، وفي الحديث: «الحياء من الإيمان»، والحياء هو العلم الأكبر، فإذا ذهب لم يبق في العبد خير، وإذا قلَّ كان علامة على الشقاء.

والحياء أنواع، فمنه حياء الجناية وهو حياء العاصي، وحياء التقصير وهو حياء المطيع، وحياء الإجلال وهو حياء المجتهدين في الطاعة، وحياء الكرم شأن المرأة التي جاءت تدعو نبي الله موسى عليه السلام بعد ما سقى لهم، وحياء الحشمة شأن عليّ لما استحيا أن يسأل عن المذي، وحياء الاستحقار شأن من يستحيي أن يسأل الله الدنيا، وحياء الإنعام وهو حياء الرب سبحانه من عبده أن يرفع إليه يديه فيردهما صفرًا خائبتين.

وسائل اكتساب صفة الحياء من الله تعالى :
العلم بالله تعالى، ومجالسة من يستحيا منه ففي الحديث: «أوصيك أن تستحي من الله تعالى كما تستحي من الرجل الصالح من قومك»، والعمل بالزهد والورع، وشهود نعم الله تعالى مع رؤية التقصير، والعلم برؤية الله سبحانه له واطلاعه عليه، وعدم الجرأة على الحدود ونقض العهود.

ومن أمارات الحياء :
السكوت هيبة، وانقباض القلب لتعظيم الرب وذوبان الحشا لاطلاع المولى، وألا يرى بموضع يُستحيا منه، وحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وذكر الموت والبلى، والإقبال على الآخرة وترك زينة الدنيا.

ومن ثمرات الحياء: تعظيم الله تعالى، والمراقبة، والحمل على المسارعة في الطاعة والمحاسن والانقباض عن المعصية والقبائح، والمجازاة من الله بالمغفرة، والحرص على بلوغ الكمالات ومرتبة الإحسان، والعافية من كثير من الأمراض ومنها: السخط والضجر، والملل والكسل، واللعب والعبث، والإدبار وعدم الاكتراث.

27. الحرية

ومن صفاتهم: الحرية، ومعناها: ألا يكون العبد تحت رق شيء من المخلوقات: دنيا أو هوى أو منًى أو سؤل، أو قصد، أو أرب، أو حظ.
قال تعالى: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة} لما تحرَّروا من أسره آثروا به غيرهم على أنفسهم، أولئك الذين خرجوا من الدنيا قبل أن يُخرَجوا منها.

وعلامة صحة الحرية: أن تتساوى لديه أقدار الأشياء ومنازلها: حجرها وذهبها، وألا تلحقه مشقة من جهة التكاليف.

وطريق تحصيلها ووسيلة اكتسابها: كمال العبودية وتمامها وصدقها ومواصلتها، وتطهير السريرة بينه وبين الله تعالى، وخدمة الصالحين وروي في الحديث: «سيد القوم خادمهم.«

ومقام الحرية مقام عزيز نادر، وهو مقام الصديقين.

28. الفتوة

ومن صفاتهم: الفتوة، وهي: أن يكون العبد أبدًا في أمر غيره، قال تعالى: {إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.«

ومن وسائل تحصيلها: القدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كل أحد في القيامة يقول: نفسي نفسي، وهو صلى الله عليه وسلم يقول: «أمتي أمتي»، وكسب الحلال، وتعلم فضائل خصال الفتوة، وتدريب النفس عليها ومجاهدتها في سبيل اكتسابها، وإن أعطي شكر وآثر وإن منع صبر وصابر.

ومن أماراتها: أن يتبع السنة، وألا يرى لنفسه فضلًا على غيره، وألا يكون له خصوم، وأن يخالف هواه لله، وأن يكف أذاه ويبذل نداه، وأن ينصف من نفسه ولا ينتصف لها، وأن يحسن خلقه - ومن حسن الخلق: الوفاء والحفاظ والجود والإيثار -، وأن يكون الناس عنده سواسية، وألا يحتجب من السائلين ولا يدخر فضله عن القاصدين، وألا يربح على صديقه وأن يستر على عيبه وأن يصفح عن عثرته وأن يتألم لمرضه.

من قواعد التعبد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم هذه الثلاث:

- التنويع فيها، بين أعمال قولية وقلبية وعقلية وعملية، بين شاقة ويسيرة، بين مؤقتة ودائمة، بين قصيرة وطويلة.. إلخ.
- تكثيرها، وهذا واضح من خلال هذه الأنواع السابقة.
- التنويع في كيفية أداء العمل الواحد على صفات وهيئات ووجوه وأنواع كثيرة، كما في التشهد منه أنواع، والصلاة الإبراهيمية منها أنواع،

29. الفراسة

ومن صفاتهم: الفراسة، قال تعالى: {إن في ذلك لآيات للمتوسِّمين}: يعني للمتفِّرسين الذين يعرفون بالعلامات التي يبديها الله تعالى على أوليائه وأعدائه، وقال تعالى: {لعلمه الذين يستنبطونه منهم}، وفي الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله.«

ومن وسائل تحصيلها: قوة الإيمان فكل من كان أقوى إيمانًا كان أحدَّ فراسة ولهذا قالوا: الفراسة من مقامات الإيمان وخواصّه، والمحافظة على الوقت، ومراعاة القلب، وغض البصر عن الحرام، وإمساك النفس عن الشهوات، وعمران الباطن بدوام المراقبة، وعمران الظاهر باتباع السنة، وأكل الحلال الخالص، وتحري الصدق في القول والفعل والحال.

ومن ثمراتها: توفيق الله تعالى لصاحبها إلى العلم بالحق ونفي الظنون والشكوك والأوهام والغفلة عنه، والوصول إلى الربانية وهي العلم والحكمة والتخلق بأخلاق النبوة والاشتغال بالحق على الدوام.

30. الخلق الحسن

ومن صفاتهم: الخلق الحسن، وهو أفضل مناقب العبد وبه يظهر جوهره، ومرتبته مرتبة بالغة الفضل والأهمية.
قال تعالى: {وإنك لعلى خلق عظيم}، وفي الحديث: قيل: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل إيمانًا؟ قال: «أحسنهم خلقًا»، وهو نعمة الله الباطنة في قوله: {وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة.{

ومن أمارات الخلق الحسن: ألا يخاصِم ولا يخاصَم من شدة معرفته بالله تعالى فإنه إذا لم تكن له همة غير الله تعالى لم يؤثّر فيه جفاء الخَلق، وأن يحسن إلى الخلق كلهم - الإنسان وغيره -، وأن يستصغر ما يعطي ويستعظم ما يعطى له، وكف الأذى واحتمال المؤن وبسط الوجه واحتمال الأذى من كل أحد، وإنزال الناس منازلهم وإعطاء كل ذي حق حقه بلا ضجر ولا قلق.

وثمرات الخلق الحسن عديدة، منها: أن صاحبه يسع به الناس وفي الحديث: «إنكم لن تسَعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق»، ومن ثمراته: زيادة الدين قال ابن القيم: الدِّينُ كلُّه خلق كريم فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، ومن ثمراته: التخلص من الهم والضيق والشؤم، أن صاحبه يقتدي بالنبيين عليهم الصلاة والسلام وبسيدهم ﷺ، وتحصيل الدرجات وزيادة الحسنات.

ومن وسائل تحصيل الخلق الحسن: تكلُّفه حتى يكون طبيعة فيه وفي الحديث: «وإنما الحلم بالتحلم» «ومن يتصبر يصبره الله»، والعلم بفضله وأنه مأمور به قال تعالى: {وثيابك فطهر} أي: وخلقَك فحسّن، وأن يخالط الناس ويعوّد نفسه الاحتمال منهم، وأن يصبر على عسر ذلك ويجاهد طبعه ويربي نفسه من أجل التغير، وأن يأخذ بأسباب ذلك كما في أمر النبي صلى الله عليه وسلم المغضَب بالجلوس والاضطجاع، والاقتداء بأهل الخلق الحسن، وحسن المدارة وحسن استقبال الأذى.

31. الجود والسخاء

ومن صفاتهم: الجود والسخاء، ومعناه: ألا يصعب عليه البذل، قال الله عز وجل: {ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة}، وفي الحديث: «.. ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا.«

والعطاء على درجات: السخاء وهو: إعطاء البعض وإبقاء البعض، ثم الجود وهو بذل الأكثر وإبقاء شيء لنفسه، ثم الإيثار وهو: مقاساة الضر وإيثار غيره بالبُلغة.

ومن ثمرات الجود: صون عرض الكريم وصون عرض نفسه عن اللئيم، والاتصاف بصفة الرحمن، والتعرض لعطائه وفضله، ونيل مكرمات الجود وفضائله والتخلص من وصمة البخل وآثاره وعقابه، والفوز بقوله: «اليد العليا خير من اليد السفلى»، والإيمان: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه..»، والفوز بالجنة كما في حديث عبد الله بن سلام: «.. وأطعم الطعام.»

ومن أحوالهم مع الجود: العطاء قبل السؤال، والعطاء على قدر نعمة الله عليهم وليس على قدر السائل، واستعمال الحيلة في إيصال المال إلى المحتاج حتى لا يرى الذلة في وجهه، والجود بالفضائل والمواقف مثل الجود بالمال كما وقع لبعضهم مع حديث: «وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» فترك خصمه يبدؤه بالسلام، والتأثر إن لم تتح له فرصة يجود فيها كضيف وغيره.

ومن نوادر أنواع الجود: ما قاله ابن المبارك: "سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل".

ومن وسائل اكتساب صفة الجود: تعلم صفته وأثره وفضله، والتعرف على أخبار أهله وصحبتهم والاقتداء بهم، تعود الإيثار بغير المال من وقت وجهد وغيرهما ثم الإيثار بالقليل والترقي فيه إلى ما فوقه.

32. الغَيرة

ومن صفاتهم: الغَيرة، وهي أن لا يجعل العبد شيئًا من أحواله وأنفاسه لغير الحق سبحانه وتعالى، فهو يغار لله جل جلاله، قال تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني، من أجل غيرة الله حرم الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن.«

وأمارة صدق العبد في الغيرة لله تعالى: تعظيم حقوق الله عز وجل وتصفية الأعمال له سبحانه.

ومن ثمراتها: أن يغار الله تعالى على عبده فيستخلصه لنفسه ويفرغه من الشواغل لأجله حتى يصفو سره ولا يكون في قلبه سواه كما فعل مع إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وأن يقضى الله حوائجه.

ومن وسائل تحصيلها: حفظ الحواس والقلب عن غيره سبحانه، وأن يسلك العبد الطريق إليه به هو سبحانه وتعالى، وأن يغار لله أن يرى عباده عنه غافلين: يتعدون حدوده ويضيعون حقوقه.

33. الولاية

ومن صفاتهم: الولاية، فالعبد يتولَّى عبادةَ الله تعالى وطاعاتِه فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، قال تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.{

ومن ثمراتها: أن يتولى الله سبحانه أمرَه، قال تعالى: {وهو يتولى الصالحين} فلا يكله إلى نفسه لحظة بل يتولى الحق سبحانه رعايته.
وفي الحديث القدسي أن الله تعالى قال: "من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه".

ومن وسائل تحصيل الولاية: أن يقوم العبد بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء، وأن يلاحظ نفسه بعين التصغير ويخشى مكر الله تعالى على الدوام، وأن يحذر الله ويخافه في كل وقت، وأن يقيم على التعظيم والهيبة والإجلال، وأن يزهد في الدنيا، وأن يفرغ نفسه لله ويقبل عليه سبحانه، وأن يكابد حتى يجد الأنس ويجاهد حتى يجد الفرج، وأن يخفي عمله ويخلصه ولا يداهن أحدًا من الخلق ولا ينافقه، وأن يديم ذكر الله في كل وقت حتى يحصل له به القرب والأنس.

ومن أماراتها: أن يديم الله تعالى حفظه في السراء والضراء، وأن يلتزم آداب الشريعة أمينًا عليها، وأن يكون شغله بالله وفراره إلى الله وهمّه الله.

34. الدعـاء

ومن صفاتهم: الدعاء، أن يدعو العبد ربه على وجه الابتهال {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم}، وقال في ذم من ترك الدعاء: {ويقبضون أيديهم} لا يمدونها إليه تعالى في الدعاء، وفي الحديث: «الدعاء هو العبادة»؛ لأنه مفتاح الحاجة ومستروح أصحاب الفاقات وملجأ المضطرين ومتنفس ذوي المآرب وأمان الخائف وأنيس المتعبد وسلوى المتهجد، وهو سلم المذنبين وعمود الاستعانة بالله، وهو المراسلة وما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد، وشأن الدعاء عظيم وهو ظاهر في الكتاب والسنة.

والدعاء أربعة أنواع :
(دعاءُ خبر)، وهو الثناء على الله وذكره بما هو أهله من كمال وأن تذكر نفسك بين يديه تعالى بما أنت أهله من نقص.
(ودعاءٌ مطلق) وهو: أن تسأل الله الخير كله وتفوض إليه العلم بحاجتك وإجابة طلبتك مثل: {ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة}
(ودعاءٌ قلبي) وهو أن تقوم بين يدي ربك وحاجتك في صدرك تتوسل إليه بسابق صدقك ومتقدم سبقك ليقضي حاجتك.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي يعبر عنها العلماء بدعاء العبادة.
وقد يضاف إليها نوع آخر وهو: طلب الثواب بالأعمال الصالحة كالصلاة والصوم والحج.
ودعاءُ مسألة) وهو طلب العبد ما ينفعه من جلب نفع أو دفع ضر.

وأقرب الدعاء إلى الإجابة: دعاء الحال: أن يكون صاحبه مضطرًا لا بد له مما يدعو لأجله.

ومن آداب الدعاء: أن يبدأ بحمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسوله ﷺ ويختم بذلك، والمداومة على الدعاء في الرخاء والشدة، ويخفض صوته ويتضرع ويلح ويتوسل بالمشروع، وأن يعترف بالذنب والنعمة، ولا يتكلف السجع، وأن يدعو ثلاثًا، وأن يعتصم بالأدعية المأثورة، ويستقبل القبلة، ويرفع يديه، ويتوضأ قبله إن تيسر، وإظهار الافتقار والتوبة، وحضور القلب وألا يكون ساهيًا، وألا يتضمن دعاؤه إثمًا، وأن يتلمس أوقات الإجابة، تضمين الدعاء الكلمات المأثورات التي جاء الترغيب فيها/ مثل: "يا ذا الجلال والإكرام"، يا حي يا قيوم"، "اللهم إني أسأل أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد" ونحوها.

ومن شرائطه: الإخلاص، والمتابعة لرسول الله ﷺ، والثقة بالله واليقين بالإجابة، وحضور القلب والخشوع والرغبة فيما عند الله من الثواب والرهبة مما عنده من العقاب، والعزم والجزم والجد فيه، وأن يكون مطعم العبد من حلال، وأن يعرف قدر ربه تعالى، وألا يجعل بينه وبين الله فيه واسطة، والدعاء للإخوة بظهر الغيب فإنه يقبل ويكتب له بمثل.

وفائدة الدعاء: إظهار الفاقة بين يدي الله تعالى، والحضور بين يدي الله تعالى.

والدعاء أنواع: دعاء بالأقوال، ودعاء بالأفعال، ودعاء بالأحوال.

وموانع الدعاء: التوسع في الحرام أكلًا وشربًا ولبسًا وتغذية، الاستعجال وترك الدعاء، وارتكاب المعاصي والمحرمات، وترك الواجبات التي أوجبها الله تعالى، والدعاء بإثم أو قطيعة رحم، والحكمة الربانية.

ويطلب بعد الدعاء: شكر الله على التوفيق إليه، وحسن الظن بإجابته، ولا يتعجل الإجابة إذا تأخرت ويشكر عليها إذا تحققت .

35. الفقر

ومن صفاتهم: الفقر، قال الله تعالى: {للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض}، وفي الحديث: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمئة عام نصف يوم»، والفقر شعار الأولياء وحلية الأصفياء واختيار الحق سبحانه لخواصه من الأتقياء والأنبياء.

وحقيقة الفقر: ألا يستغني إلا بالله تعالى.

ومن ثمرات الفقر: الرضا، والاستغناء بالله، وصيانة الله للعبد وغيرته عليه وإرادته به الخير وتوفيقه إليه، وتقريبه وتحبيب مجالسته إلى الصالحين من خلقه، والعزة بالله عن من سواه وكفايته له عن الذل لمن عداه، وعلو الرتبة والتقدم في الآخرة وخفة الحساب، ويضع الله له القبول بين خلقه.

ومن أماراته: الصبر على ضيق الحال، وخلو القلب من الخوف من الفقد، والاجتهاد في الخلوات، وإرسال النفس في أحكام الله تعالى بالرضا، والتواضع، والصبر على حاله، وألا يستغني إلا بالله، وأن يداوم الفقر إلى الله على جميع الأحوال، والسكون عند العدم والإيثار عند الوجود، ونسبة الفضل في كل شيء إلى الله تعالى، والسخاء، والسرور بحاله.

ومن وسائل تحصيله واكتسابه: حفظ السر فيما بينه وبين الله وأداء الفرض وصيانة فقره عن غير الله تعالى: يظهر لغيره الغنى، وقصر الأمل، والرضا بما في اليد وعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس، وتحصيل العلم وأخذ النفس بالورع واليقين والذكر، وتحصيل التقوى.

36. الفقر

ومن صفاتهم: الصحبة في الله تعالى، قال الله عز وجل: {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} فالحرُّ شفيق على مَن يصحبه كما فعل النبي ﷺ مع الصدِّيق.

والمسلم إذا صحب من هو فوقه في العلم والدين وغيرهما: كان حقًّا له عليه أن يخدمه ويترك الاعتراض عليه وتقديم العذر له، وإذا صحب من هو دونه يجب على الكبير أن يكون شفيقًا رحيمًا مؤدِّبًا له: يدله على الخير وينبهه على النقص برفق ويجب على الآخر أن يكون موافقًا موقرًا له، وإذا صحب من هو مثله يؤثر كل منهما الآخر ويعامله بخلق الفتوة ويغض عن عيبه.

ومن ثمرات الصحبة: القيام بحقوق الأمة، وتمحيص العيوب، ومعالجة الفتور، ورأب الصدع، والتخفيف من وحشة الغربة، وشد الأزر،

وحقوق الصحبة: المناصحة، والإيثار، والتعاون على البر، وألا يختص بشيء دون صاحبه، والتذكير بالخير، وحسن الظن وقبول الظاهر، والإغضاء وعدم الاستقصاء، والتراحم، والتزاور، والصفح والاحتمال.

ونواقضها: سوء الظن والغيبة والسخرية والحسد والجدل والقطيعة وعدم القيام بحقوقها.

37. محبة الله تعالى:

ومن صفاتهم: محبة الله تعالى، قال الله عز وجل: {يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه}، ومحبة العبد لله تعالى حالة يجدها من قلبه تلطُف عن العبارة.
ويكفي لبيان فضل المحبة قوله ﷺ" «المرء مع من أحب»، والمحبة هي أقوى محركات القلوب إلى الله تعالى.

ومن ثمرات المحبة: تعظيم الله تعالى وإيثار رضاه وإثارة الشوق إليه والأنس به، وطاعته سرًّا وجهرًا ومحبتها واجتناب معصيته ومقتها، والتفاني في تحقيق مراده والغيرة على حرماته وحفظها، وحب الله يقوي العبد على العبادة ويمنحه الإقبال والحيوية والعزم والإرادة، ومحبة العبد لله تثمر محبة الله تعالى له.

ومن طرق تحصيل المحبة: أن يخلي العبد مِن قلبه كل محبة سواها: محبة الدنيا ومحبة الخلق وكل محبة، وأن يتبع رسول الله ﷺ في كل أمر ونهي ويصدقه في كل خبر، وأن يأخذ نفسه بما في الكتاب والسنة من أسباب محبة الله، وقد صنفت في ذلك مصنفات.

وأمارتها: أن يعطَى العبد من الخشية مثل ما يعطى من المحبة، وأن يستكثر من النوافل، وأن يعتذر لله تعالى من التقصير مع كمال الجد والتشمير.. على الدوام.

وناقضها: اختيار العبد هواه على رضا الله تعالى فيما يستقبله من الأفعال، وأن يحل في القلب حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطمأنينة بها.

38. تعظيم الله جل وعلا

ومن صفاتهم: تعظيم الله تعالى، قال تعالى: {ما لكم لا ترجون لله وقارًا} أي: لا تعظمون الله حق عظمته.
وأعظم وسائل تحصيل التعظيم وطرق كسبه: معرفة الله تعالى.

ومن أماراته: تعظيم أوامر الله تعالى واتباعها وتعظيم نواهيه واجتنابها والعناية بها أتم العناية من الاستعداد والتعلم والتخطيط لها والترتيب وحسن الأداء والاستثمار.

ومن ثمرات التعظيم: رعاية الإخلاص وحسن العناية والإقبال والمسارعة في الخيرات وتحصيل التقوى.

ومن صفاتهم: الشوق، وهو: ارتياح القلوب بالوَجد ومحبة اللقاء والقرب، قال تعالى: {من كان يرجوا لقاء الله فإن أجل الله لآت} والرجاء يتضمن الشوق إلى المرجو، وقال تعالى: {وعجلت إليك رب لترضى}، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو: «وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.«

ومن وسائل تحصيل الشوق: المحبة فعلى قدر المحبة يكون الشوق، والدعاء به.

وأمارته: حب الموت وقت الراحة، وفطام الجوارح عن الشهوات، وتذكّر لقاء الله على الدوام، وأن يلهو العبد عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه.

ومن ثمرات الشوق: أن قلب العبد ينوّر بنور الله تعالى، ويشتاق إليه كل شيء ومنه الجنة، ويهون عليه الموت، وتحصل له محبته تعالى له.

39. الذُّلُّ لله تعالى بالخضوع له سبحانه

ومن صفاتهم: الذُّلُّ لله تعالى بالخضوع له سبحانه والانكسار بين يديه والاعتراف بقهره والحاجة إلى معونته.
وتمام الذل شرط في تحقق العبادة، إذ العبادة هي: كمال الحب مع تمام الذل: غاية الذل.

وأمارته: الانقياد لله تعالى في كل أمر ونهي، والخضوع والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعجز والعيب والنقص والذم..

وشرف هذا المقام كبير عظيم رفيع، فإن أكمل الخلق عبودية: أكملهم ذلًّا لله وانقيادًا وطاعة له جل جلاله.

ومن وسائل تحصيل الذل: الوقوف على معاني اسم الله العزيز وأفراد صفة العزة الواجبة له عز اسمه، والعلم بحاجته وافتقاره له سبحانه وتعالى على مدى الأنفاس في جلب النفع ودفع الضر، والتعرف على أحوال العاملين بهذه الصفة والاقتداء بهم في ذلك، والسجود بين يدي الله تعالى مع التضرع وإظهار الفاقة والحاجة وتمريغ الأنف في الأرض طلبًا لرضاه.

ومن ثمرات الذل لله: سعادة العبد الأبدية فإنها في أن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجب ذلك وقد قيل: على قدر التذلل يكون التلذذ.

ومن ثمراته: تحصيل المحبة، وأن العبد يفتح له في الطريق إلى الله تعالى من هذا الباب ما لا يفتح له من باب سواه من حيث القرب والسعة والوصول ورفع العقبات، ونصيب المتذلل - الذي يفتح الله له باب اللجأ والافتقار إليه عز وجل في الشدة والرخاء - من التوفيق أعظم من غيره وما يصرفه عنه من الخذلان أعظم من غيره، ومن ثمراته: إجابة الدعاء.

40. التفكر

ومن صفاتهم: التفكر.
ومجالات التفكر العامة ثلاثة: التفكر في الكتاب المسطور: (القرآن)، والتفكر في الكتاب المنظور: (الكون)، والتفكر في الكتاب المأثور: (التاريخ) فالتفكر هو النظر والتأمل والاعتبار في هذه الثلاثة.

قال تعالى: {أفلا يتدبرون القرآن}، {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}، {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة".

ومن ثمرات التفكر: الاتعاظ والاعتبار، والتقاط الفائدة، وزيادة الإيمان وترسيخ اليقين وتربية النفس.

ومجالات التفكر كثيرة، منها :
التفكر في القرآن الكريم - صدق خبره وحكمة أمره ونهيه.. إلخ.-
والتفكر في الكون - بره وبحره وجوه.. إلخ.-
والتفكر في النعم - الظاهرة والباطنة الخاصة والعامة الدينية والدنيوية .. إلخ- وحال الإنسان معها.
والتفكر في السنن الإلهية في الكون والأمم والأفراد.
والتفكر في أسماء الله تعالى وصفاته.
والتفكر في أيام الله تعالى - أيام البلاء والنعماء والنصر والهزيمة وأيام التمكين وأيام الاستضعاف.
والتفكر في حال أمة الإسلام - حاضرها ومستقبلها وأمراضها وعلاجها .. إلخ.
والتفكر في خلق الإنسان - مادة ومعنى.-
والتفكر في حال الإنسان وترتيب أموره في نفسه وما حوله ومن حوله.

41. اليقظة

ومن صفاتهم: اليقظة، وهي: انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغفلة ونومها وسكرتها، قال تعالى: {قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى} فالقَومة لله هي اليقظةُ والنهوضُ من سِنة الغفلة.

واليقظة صفة عظيمة القدر مَن أحسَّ بها فقد أحسَّ بالفلاح فإن القلب بها يستنير وتدبُّ فيه الحياة.

ولها مراتب، أعلاها: انتباه العبد لمعرفة ما معه من الزيادة والنقصان من الأيام في الحال والإيمان، والتنصُّل من تضييعها، والنظر إلى الضَنِّ بها لتدارك فائتها وتعمير باقيها .

ومعرفة الزيادة والنقصان من الأيام يستقيم عن طريق :
(1)سماع العلم الذي يكشف له عن مراتب الأعمال.
(2)وتفقُّد إجابة داعي تعظيم حرمات الله من قلبه ليعلم هل هو سريع الإجابة لها أم هو بطيء عنها.
(3)وصحبة المشمرين أرباب العزائم.
ومِلاك ذلك كله: خلع العادات والمألوفات ومفارقتها.

ومن وسائل اكتسابها: الإصغاء إلى الناصحين واستماع الواعظين.

- ومن ثمراتها: أنها تنبه السالك على تشمير الهمة للسفر إلى الجنة وتعينه على ذلك، ومن ثمراتها: لحظ القلب إلى النعم - الدينية والدنيوية - وكثرتها والمنة بها وعظمتها وتفرغه لمشاهدة منة الله عليه بها والعلم بالتقصير في حقها وهو القيام بشكرها.
- وهذا يوجب: محبة المنعم واللهج بذكره وتذكره والخضوع له، والإزراء على نفسه حيث عجز عن شكر نعمه، وهذا هو التحقق بقوله في سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» فالعبد دائمًا سائر إلى الله تعالى بين مطالعة المنة ومشاهدة التقصير.

وهذا يؤدي به إلى:
- مطالعة الجناية عن طريق: تعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد.
- والوقوف على الخطر فيها.
- والتشمير لتداركها بالعلم والعمل.
- والتخلص من رقها بالاستغفار والندم.
- وطلب النجاة بتمحيصها عن طريق تخليص إيمانه ومعرفته من خبث الجناية بالتوبة النصوح والاستغفار المصحوب بمفارقة الذنب والندم عليه وعمل الحسنات الماحية والمصائب المكفرة.

42. التعفف والاستغناء عن الناس

ومن صفاتهم: التعفف والاستغناء عن الناس، قال تعالى: {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف}، {واسألوا الله من فضله} قال سفيان: لم يأمر بالمسألة إلا ليعطي، وفي الحديث: «شرف المؤمن قيام الليل، وعزُّه استغناؤه عن الناس»، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: "أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم ألا أسأل أحدًا شيئًا".

ومن مجالات التعفف: ترك المسألة، وترك الدَّين إلا من ضرورة أو حاجة شديدة، وفي الحديث: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله.«

ومن ثمرات التعفف: العز كما في الحديث الأول، وأن يتكفل له النبي ﷺ بالجنة ففي الحديث: «من يتكفل لي ألا يسأل الناس شيئًا وأتكفل له بالجنة؟»، وصيانة الوجه عن المسألة لغير الله وفي الحديث: ««لأن يأخذ الرجل حبلًا فيأتي رأس جبل فيحتطب، ثم يحمله فيبيعه، فيستعف به خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه، وذلك بأن اليد العليا خير من اليد السفلى»، وكان من دعاء الإمام أحمد: "اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك".

والتعفف مقام عظيم شريف، ولهذا جعله النبي صلى الله عليه وسلم من أركان البعة التي كان يبايع عليها أصحابه رضوان الله عليهم.

إذا انتهينا - بعون الله تعالى - من ذكر صفات السالكين في طريق الله سبحانه أبدأ بعدها - بمشيئة الله تعالى - في ذكر أحوالهم (أحوالهم مع الذكر، مع الفكر، مع الصوم، مع القرآن، مع الصلاة.. إلخ، ثم في ذكر معوِّقاتهم.

رب يسر وأعن يا كريم

أحمد الجوهري عبد الجواد